دليل الإنسان

نقلها إلى اللغة العربية

أحمد الشنتناوي

إبراهيم زكي خورشيد

عبد الحميد يونس

محمد فؤاد جلال

المكتبة

تراجعها

وزارة المعارف العمومية

٥٧٠٢

٢٨٥٠

« چغتای خان » : أمير مغلى ، وهو ثانى أبناء چنكيزخان من زوجته الملكة بورته فوبرين . وكان يعد حتى فى حياة أبيه أحسن من يعرف الياسا (هى قوانين المغل القبلية التى جمعها چنكيزخان) والحجة الأكبر فى جميع مسائل القانون والعرف . وقد اشترك مثل إخوته فى حروب أبيـــه مع الصين (١٢١١ — ١٢١٦) ومع مملكة خوارزمشاه (١٢١٩ — ١٢٢٤) . وحاصر الأمراء الثلاثة : جوچى وچغتاى وأگداى ، قصبة خوارزم شاه گرگنج (وتعرف حديثاً باسم قنيه أورگنج) واستولوا عليها فى صفر عام ٦١٨هـ (٢٧ مارس — ٢٤ أبريل ١٢٢١) . وقد قتل فى هذا العام نفسه ولد چغتاى البكر متوكن أمام مدينة باميان . ونيط بچغتاى بعد القتال الذى نشب عند نهر السند (فى يوم الأربعاء التاسع من شوال ٦١٨هـ كما فى رواية النسوى ، طبعة هوداس ، ص ٨٣ ، ولعل ذلك يوافق ٢٤ نوفمبر سنة ١٢٢١) قتال جلال الدين خوارزمشاه ، ولذلك صرف شتاء عام ١٢٢١ — ١٢٢٢ فى الهند . وظل چغتاى خان فى منغوليا على رأس الجيش الذى خلفـــه چنكيزخان عندما سار فى حملته الأخيرة على تنگوت عام ١٢٢٥ — ١٢٢٧ .

ولم يشترك چغتاى اشتراكا جدياً فى الحروب بعد وفاة أبيه . فقد كانت له مكانة عظيمة ، لأنه كان أكبر من بقى على قيد الحياة من أبناء العاهل الراحل ذلك أن أخاه جوچى توفى قبل وفاة أبيه ، وفى عام ١٢٢٩ ترأس چغتاى هو وعمه أوچگين مجلس الأمراء ، وهو المجلس الذى انتخب أگداى خانا أكبر . وكان چغتاى حجة القانون فى المملكة بأسرها فنظم سلطانه حتى أن أگداى الخان الأكبر نفسه لم يكن أمامه إلا أن ينحنى له احتراماً . ويظهر أن چغتاى قضى بعض هذه الفترة بمنغوليا فى بلاط أخيـه وبعضها الآخر فى الأرض التى وهبها له أبوه وجعل فيها مضارب حاشيته . وكان لچغتاى ، شأن غيره من أمراء المغـــل ، مضارب (أردو) خاصة للشتاء والصيف . ويذكر الجوينى أن مراوسيك إيلا كانت مشتاه وقُشياش مصيفه . وكلا الموضعين فى وادى إيلى بإقليم إيلى الصينى الحديث ، وعاصمته قولجه إلى الجنوب الشرقى من مدينة ألمالِغ وهى من مدن العصور الوسطى . والمعسكر الذى ذكره الرحالة الصينى كنج — چُن إلى الجنوب من نهر إيلى . ولعل هذا الرحالة أشار إلى مصيفه لأنه كان فى ذلك الموضع فى شهر مايو من عام ١٢٢٣ (انظر *Mediaeval Researches* : Bretschneider *from Eastern Asiatic Sources* ج ١ ص ٩٧) . ويسمى الجوينى وغيره مقر خلفاء چغتاى باسم أولغ إيف (وقد تكون أولوغ إيق هى القراءة الصحيحة) .

وأخذ چغتاى من أبيه جميع البلاد ، من أرض الأويغور فى الشرق إلى بخارى وسمرقند

فى الغرب . على أن هذه البلاد كلها لاتعد مملكة واحدة تحكم من وادى إيلى ، وكانت تخضع خضوعاً غير مباشر للخان الأكبر وقصبته فى منغوليا . فقد ظلت الأسر الوطنية التى كانت قبل المغل تحكم فى كل مكان حتى فى وادى إيلى ذاته . وليست لدينا أخبار دقيقة عن صلات هذه الأسر بحكام المغل . كما أننا لا نعرف إلا القليل عن مدى السلطان الذى يستمده أمير إيلى من الخان الأكبر وعماله . وليس من شك أن بلاد آسية الوسطى المتحضرة لم تكن تحكم باسم چغتای ولكن باسم الخان الأكبر . ولم يرد ذكر چغتای فى الأخبار الخاصة بقمع الفتنة التى شبت فى بخارى عام ٦٣٦ هـ (١٢٣٨ — ١٢٣٩ م) وكان يحكم ماوراء النهر فى ذلك العهد محمود يلواچ وهو خوارزمى المولد عاش فى خجندة واختاره الخان الأكبر لهذا المنصب . بل إن الخان الأكبر كان يختار قواد جند المغل فيما وراء النهر . ثم إن چغتای أقال محمود يلواچ بعد ذلك مباشرة ، وكان فى ذلك متعسفاً فاستدعاه أخوه ليسأله فى ذلك فلم يجد مناصا من الاعتراف بمجافاته الحق فى فعلته هذه . وسر أگداى من اعتذار أخيه وأقطعه هذه البلاد (اينجو) ولكن حالتها الشرعية ظلت كما هى . وكان يحكم البقاع المتحضرة الممتدة من حدود الصين حتى بخارى مسعود بك بن محمود يلواچ باسم الخان الأكبر وذلك خلال السنوات الأخيرة من حكم أگداى ثم فى عهد منگو من بعده . ولا نستطيع التحقق من مدى اشتراك قطب الدين حبش عميد ، وزير چغتای المسلم ، فى إدارة الدولة مع ممثلى الخان الأكبر . ويقول رشيد الدين إن هذا الوزير وفد من أوترار ، أما جمال القرشى فيقول إنه وفد من كرمينة وإنه مثل كثير غيره من المسلمين أصحاب المناصب الرفيعة فى عهده بنى مجده بين المغل لأنه من أثرياء التجار . وكان حبش صديقاً حميما للخان حتى أن كل واحد من أبناء چغتای اتخذ ولداً من أبناء حبش عميد صديقاً له . ولم يكن چغتای مخلصاً فى إسلامه . وكان فى القيام ببعض الشعائر الإسلامية مخالفة لسنة المغل يعاقب عليها چغتای فى غير تسامح ، فقد كان المغل يحرمون ذبح الحيوان ، وهو ما ينص عليه الشرع . ومن قوانين المغل التى كثيراً ما كان المسلمون يخرجون عليها عند الوضوء تحريمهم الاغتسال فى المياه الجارية . وأصبح اسم چغتای مبغضاً من جميع المسلمين للعقاب الصارم الذى كان ينزله بمن يرتكب مثل هذه المحرمات . وأنشد الشاعر سديد اعور عند وفاة چغتای قائلا « إن هذا الرجل الذى لم يجسر أحد على دخول الماء خشية بأسه هو الآن غارق فى المحيط الواسع » (أى فى الموت) . ولم يشتهر وزيره المسلم بالتقوى ، فإنه يقال إن چغتای قتل الشيخ أبا يعقوب يوسف السكاكى بتحريض هذا الوزير (انظر عن ذلك : خواند ـ حبيب السير ، طبعة طهران ج ٣ ، ص ٢٨) . وثمت قصيدة للشيخ سيف الدين الباخرزى

المتوفى فى الرابع والعشرين من ذى القعدة عام ٦٥٩ هـ (٢٠ أكتوبر ١٢٦١) كال فيها اللوم لحبش عميد (وردت هذه القصيدة فى *Turkestan W epokhu Mongol*,: Barthold *skago nashestviya* ج ١ ، ص١٠٤) . ولعل كراهية چغتاى للاسلام جعلته يعد من أنصار المسيحية . بل إنّه ورد فى رواية ذكرها ماركو پولو إن چغتاى قد عمّد ، ولكن ليس هناك مايدعم هذه الرواية .

ولم يعش چغتاى سوى أشهر قليلة بعد وفاة أخيه أگداى فى الخامس من جمادى الثانية عام ٦٣٩هـ (١١ ديسمبر ١٢٤١) وعلى هذا فإن هلاكه كان بلا شك عام ١٢٤٢ . وقد قتل طبيباه ، جرياً على سنة المغل لأنهما عجزا عن إنقاذ حياة مولاهما ، وأحدهما وزير من أصل صيني ، والآخر طبيبه مجد الدين وكان مسلما . وعاش حبش عميد بعد وفاة چغتاى سنوات ، وتوفى فى شعبان عام ٦٥٨ هـ (١٢ يوليو — ١٩ أغسطس ١٢٦٠) .

وكان چغتاى هو الوحيد من أبناء چنكيزخان جميعا الذى ظل اسمه مرتبطا بأسرته وبالدولة التى أنشأتها هذه الأسرة . وقد حل اسم أوزبك خان المسلم محل أسماء الخانات الوثنيين فى مملكة القبيلة الذهبية . وأصبح الشعب يعرف باسم الأزابكة ودولتهم باسم أزبكستان ؛ على أن بدو الترك أو المستتركة فيما وراء النهر ظلوا يعرفون بالچغتاى حتى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) وإن لم تل الحكم أمداً طويلا أسرة من نسل چغتاى . ولايزال اسم چغتاى يطلق إلى اليوم على لغة الأدب التركية الشرقية التى نمت بادىء الأمر فى عهد بنى تيمور (انظر مادة الترك ، واللهجات التركية) . ولم تقم دولة المغل المعروفة باسم چغتاى فى الواقع إلا بعد مرور عشرات السنين من وفاة الخان الذى نسبت إليه هذه الدولة . وكان قرا — هولاكو ، أحد أبناء متوكن وقد قتل عند باميان ، هو أول من عد رأس هذه الاسرة ، وقد خلع من منصبه بأمر گيوك الخان الأكبر (١٢٤٦—١٢٤٨) ليفسح المجال أمام بيسو منكو أحد أبناء چغتاى . وقضت حوادث عام ١٢٥١ (انظر مادة باتوخان) على ما كان لبيت چغتاى من مكانة مدة من الزمن ، فقد قتل أو نفى جميع البالغين من هذا البيت . وأعيدت أرغانه أرملة قرا هولاكو إلى عرش إيلى وأقيمت وصية على ولدها مبارك شاه إبان السنوات العشر التالية ، ولكنها لم تعمر بعد ذلك طويلا والظاهر أنها لم تبسط سلطانها على البلاد المجاورة . وجاء فى رواية روبريكويس Rubruquis (١٢٥٣ — ١٢٥٥) أن إمبراطورية المغل فى ذلك العهد كانت مقسمة فى واقع الأمر إلى قسمين منفصلين . وحكم باتو النصف الغربى وكان يعامل الخان الأكبر معاملة الند للند تقريبا على الرغم من أن السكة كانت تضرب فى كل مكان باسم الخان الأكبر منكو . وكانت الأراضى التى تخضع مباشرة للخان الأكبر تبدأ بين نهرى تلس وچو . ونُصّب مسعود بك الذى ذكرناه فيما سبق ، وكان موضع تقدير الخانين ، والياً على جميع البقاع المتحضرة فيما بين بيش بالق وخوارزم .

وتغيرت الأمور عند وفاة الخان الأكبر منجگو عام ١٢٥٩ ، فنى خلال النزاع الذى شب بين قبلاى وأريغ بغا فى سبيل السلطان، اتفق أخو الخان الأكبر إلگو — وهو حفيد چغتاى — على الاستيلاء على وسط آسيا باسم أريغ بغا وشد أزره من هناك على أعدائه . وقد أفلح فى إخضاع وسط آسيا بأسره لسلطانه فى مدة وجيزة بما فى ذلك بلاد مثل خوارزم وأفغانستان الحديثة التى لم تكن قبل ذلك من أملاك بيت چغتاى ولو بالاسم . وكان من الطبيعى ، وقد أحرز إلغو هذه الانتصارات لنفسه لا لأريغ بغا ، أن ينادى بنفسه حاكماً مستقلا فى كل مكان ، وخاصة بعد أن حاول أريغ أن يثبت حقوقه ، فنال أول الأمر بعض النجاح ثم اضطر إلى الجلاء عن هذه البلاد . وكان مسعود بك لا يزال والياً على البلاد المتحضرة — ولكنه لم يكن يحكمها وقتذاك باسم الخان الأكبر ولكن باسم ألگو .

وقد يعد ألگو مؤسس دولة مغلية مستقلة فى أواسط آسية ، ولكنه لم يستمتع بثمرة انتصاره إلا فترة وجيزة ، فقد توفى عام ٦٦٤هـ (١٢٦٥ — ١٢٦٦) وبعد وفاته بسنوات لم لم يكن أمام أمراء بيت چغتاى فى هذه الناحية إلا أن يتخلوا عن مقاليد الحكم فى هذه الدولة إلى قيدو حفيد اگداى (انظر مادة براق خان) الذى ظل على العرش إلى أن توفى فى بداية عام ٧٠١ هـ (خريف ١٣٠١) .

وكان مسعود بك مرة أخرى يحكم البقاع المتحضرة فى أواسط آسية باسم قيدو . وتوفى مسعود بك فى شوال عام ٦٨٨هـ (أكتوبر — نوفمبر ١٢٨٩) وخلفه أبناؤه الثلاثة على التعاقب : أبو بكر حتى شعبان عام ٦٩٧هـ (مايو — يونية ١٢٩٨) وستلمش بك حتى عام ٧٠٢هـ (١٣٠٢ — ١٣٠٣) وسيونچ . واستمد الأولان سلطانهما من قيدو أما الثالث فمن خلفه چپر .

ولم يستطع چپر الاحتفاظ بسلطانه بعد وفاة أبيه إلا بضع سنوات . فقد خلعه دوا ولد براق خان عام ٧٠٦هـ (١٣٠٦ — ١٣٠٧) . ولا شك فى أن دوا هو المؤسس الحقيقى لمملكة چغتاى . وعينت الحدود التى تفصل هذه المملكة عن الممالك المغلية الأخرى (الصين ، فارس ومملكة القبيلة الذهبية) فى الخريطة الصينية التى رسمت عام ١٣٣١ (انظر مادة بيش بالق) . وكان ذلك قبل أن يصبح لهذه المملكة نظام مستقل بها بوقت ما . ويتضح من كتاب جمال الدين قرشى الذى كتب فى عهد چپر أن الأمور فى أواسط آسية كانت مماثلة تقريباً لما كانت عليه فى ذلك العهد عندما قامت فى الصين وفارس حكومة مغلية مركزية قوية مدة طويلة كما كان الحال فى السنوات الأولى من الفتح المغلى . فقد بقيت إلى جانب أسرة الحكام القديمة الأسر الوطنية الأولى حتى فى وادى إيلى نفسه . أما فى المدن التى لم يكن فيها أسر

وطنية فقد كان الصدر (شيخ الاسلام) على رأس الهيئة الإدارية .

ومن الواضح أن المغل فى تلك الجهة كانوا أقل تأثراً بالإسلام. والثقافة الإسلامية من غيرهم ، فقد استطاعوا أن يحتفظوا بصفاتهم الخاصة مدة أطول مما استطاعوا فى فارس على الرغم من رعاياهم الذين غلبوا على أمرهم . فما وافى الفتح المغلى حتى كان الإسلام دين الدولة الرسمى فى كل مكان حتى فى وادى إيلى اللهم إلا إذا استثنينا بلاد الأويغور ، ومع ذلك فإن هذه البقاع لم تتأثر إلا قليلا بالثقافة العربية الفارسية .

وأعقب الفتح المغلى كما بين روبروكويس Rubruquis اتساع مناطق الرعى فى تلك البلاد على حساب المدن والأراضى المعدة للزرع ، وكان من شأن الحكم المغلى أن قضى على حياة الحضر فى تلك البقاع فى عهد متأخر اللهم إلا فيما وراء النهر والتركستان الصينية الحديثة . وطبيعى أنه كان للحضارة الإسلامية فيما وراء النهر بعض الأثر فى المغل وخاصة فى حكامهم ، غير أن هذا الأثر لم يكن من القوة بحيث يغرى سواد الشعب بتغيير طريقة معاشه . فلما اعتزمت الأسرة الحاكمة الاستقرار فيما وراء النهر والخروج على سنن الرعية انسلخت الأقاليم الشرقية من الأمبراطورية .

والظاهر أن عهد ييسو منكو القصير (١٢٤٦ — ١٢٥١) كان مواتياً للذين دخلوا فى الإسلام ، وكان الوزير وقتذاك ، واسمه بهاء الدين المرغينانى ، صديقاً للخان فى صباه وربيباً لحبش عميد وسليل شيوخ الإسلام فى فرغانة ، وكان فى فعاله أبر بالعلماء والشعراء من أبيه الذى تبناه ، وقد امتدحه الجوينى أحد معاصريه وكان وثيق الصلة به لأن الأمير كان يرعاه وكان بيت بهاء الدين معقداً لجميع المساجلات العلمية والأدبية . وكان الخان يمقت حبش عميد لمشايعته قرا هو لا كو ، ويدين حبش عميد بحياته لشفاعة بهاء الدين ، ومع ذلك فإن بهاء الدين حاق به بعد حوادث عام ١٢٥١ ما حاق بالخان ، فقد سلم إلى أبيه الذى تبناه فأمر بقتله أشنع قتلة . وعاد حبش عميد فى عهد أرغونة إلى منصبه الذى كان يشغله فى عهد چغتاى ، ومع ذلك كان هوى هذه الأميرة مع المسلمين ، وقال وصاف بأنها حامية الإسلام بل قال عنها جمال القرشى إنها مسلمة . والمحقق أن ولدها مبارك شاه الذى مُلِّك على ماوراء النهر قد دخل فى الإسلام كما فعل منافسه براق خان بعد ذلك بسنوات . والظاهر أن ألكو كان أقل رعاية للمسلمين ، وقد اتصل سليمان بك ولد حبش عميد بهذا الحاكم الجديد . وقُتل الشيخ برهان الدين أحد أبناء الشيخ سيف الدين الباخرزى فى فتح بخارى . وأخرت الحوادث التى وقعت فى السنوات التالية غلبة الثقافة الإسلامية التى مهد لها الطريق دخول مبارك شاه وبراق فى الدين الإسلامى . وظل قيدو وچپر وكذلك

دوا وغيرهم من أمراء بيت چغتای على الوثنية واتخذوا مساكنهم فى الأقاليم الشرقية . وفى عهد إيسن بغا ولد دوا توغلت جيوش الخان الأكبر من الصين حتى بلغت قلب آسية الوسطى ونهبت مصيف الخان ومشتاه ، وذكر الكاتب الذى وضع ذيل كتاب جامع التواريخ لرشيد الدين فى أخباره عن هذه الأحداث أن مشتى الخان كان فى الناحية التى على ضفاف إيسيك كول ، أما مصيفه فكان على جبال تلس .

وكان خان كبك (أحد أبناء دوا) خليفة إيسن بقا أول من عاد إلى بلاد ما وراء النهر المتحضرة ، ويقول المؤرخون إنه حكم ثمانى سنوات أما سكته فتدل على أنه حكم حتى عام ٧٢٦هـ (١٣٢٦م) . وقد امتدحه المسلمون لعدله وإن لم يدخل فى الإسلام . ويقال إنه شيد عدة مدن أو أعاد بناءها . وابتنى لنفسه قصراً فى جوار مدينة نخشب أو نسف ، وأخذت هذه المدينة اسمها الحديث « قرشى » من هذا القصر (قرشى بالمغلية يعنى قصر) . واتخذ هذا الخان السكة الفضية التى عرفت فيما بعد باسم « كبكى » ولعلها أول سكة مستقلة عن غيرها استعملت فى الدولة الچغتائية . ولم يكن يتداول فى آسية الوسطى منذ الفتح المغلى حتى عهده سوى السكة الخاصة بالمدن الخاصة أو بيوت الحكم . ويجيز لنا هذا أيضاً القول بأن كبك هو أول من وحد الدولة على أساس مكين ، وإن عوزتنا الأسانيد القاطعة فى هذا الشأن .

واعتلى ترماشيرين أخو كبك العرش بعد فترتين قصيرتين ظل العرش فيهما شاغراً ، ولعل ذلك كان فى عام ٧٢٦هـ . وأسلم هذا الخان وتسمى بعلاء الدين . وقد أهمل الأقاليم الشرقية فانتقضت عليه هى الأخرى لخروجه على الياسة . ويظهر أن تلك الفتنة حدثت حوالى عام ٧٣٤ هـ (١٣٣٣ — ١٣٣٤م) وقلما نستطيع تفصيل الكلام عما سوى ذلك من حوادث ذلك العهد ، فمن المستحيل علينا التوفيق بين روايات مؤرخيه التى لا يعتمد عليها كثيراً ، وبين أخبار ابن بطوطة المشوبة أيضاً بالخيال والغرائب (رحلة ابن بطوطة ، طبعة Defrémery و Sanguinetti ج ٣ ، ص ٢٩ وما بعدها) . وتثبت روايات المبشرين فى ذلك العصر أن قصبة الدولة قد انتقلت إلى وادى إيلى أمداً قصيراً وأنه سمح للنصارى بنشر دينهم وبتشييد الكنائس فى عهد جنكشى (حوالى عام ١٣٣٤ — ١٣٣٨) بل يقال إن ولداً للخان لايزيد عمره على سبع سنوات قد عمّد برضاء والده وسمى باسم يوحنا Johannes. ولكن سرعان ما ثار المسلمون على هؤلاء المبشرين فوقعوا فريسة لهم . وذكرت مدينة نسف (قرشى) مرة أخرى بعد ذلك بسنوات على أنها مقر خان قازان (غازان) . وقتل هذا الخان بعد ذلك بأمد وجيز (عام ٧٤٧هـ = ١٣٤٦ — ١٣٤٧م) فى القتال الذى شب فى بلاده مع أشراف الترك المحاربين ، وبذلك قضى على أسرته الحاكمة فيما وراء النهر ، وأخذ أمراء الترك حتى عام ١٣٧٠ ينصبون على العرش أفراداً من سلالة بيت

چغتای ليس لهم من السلطان إلا اسمه . واختير هؤلاء الحكام فى عهد تيمور من بيت أگتداى . ومهما يكن من الأمر فإن البدو من أهل ماوراء النهر كانوا يتمتعون فى عهد تيمور وخلفه بامتيازات كثيرة بوصفهم من المحاربين ، وظل يطلق عليهم اسم چغتائى كما كان الحال من قبل . ويذكر كلافيجو Clavijo المبعوث الإسبانى (١٤٠٣ — ١٤٠٦) تفاصيل وافية عن هذا الموضوع . وانتقل اسم چغتاى إلى بنى تيمور الذين هاجروا إلى الهند وذلك بعد أن طرد الأزابكة الچغتاى فى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) وكان فى التركستان الصينية الحديثة حتى نهاية القرن السابع عشر أسرة حاكمة تدعى أنها من سلالة الچغتاى . واستطاع هؤلاء الأمراء أحيانا بسط سلطانهم حتى البلاد التى إلى الشمال من جبال تيان شان (الجبال السماوية) كما تمكنوا من القيام بحملات على بلاد ماوراء النهر والتبت والهند وأفغانستان . ويظهر أن رعايا هؤلاء الأمراء كانوا لا يتلقبون بالچغتاى بل بالمغل لا غير ؟

المصـــادر :

إن مصادر تاريخ چغتاى وخلفائه أقل بكثير من أخبار ممالك المغل فى فارس والصين وهى على قلتها لم تجمع أو تطبع بعد . وإذا استثنينا كتاب « ملحقات الصراح » لجمال القرشى الذى لا يوجد غيره ، فانه لم تؤلف كتب تاريخية فى آسية الوسطى خلال العهد المغلى ، وهناك مخطوطان لكتاب ملحقات الصراح فى المتحف الآسيوى بسانت بطرسبرج ، ولا تعرف أوربا الغربية شيئاً عن هذا الكتاب حتى الآن . وأورد بارثلد Barthold فقراتٌ من هذا الكتاب فى *Turkestan etc* ج ١ ، ص ١٢٨ وما بعدها . وذكر المؤرخان الفارسيان الجوينى فى « تاريخ جهان كشا » (أورد Défrémery فقرات منه فى المجلة الآسيوية ، المجموعة الرابعة ، ج ٢٠ ، ص ٣٨١ وما بعدها) ورشيد الدين فى « جامع التواريخ » (أورد Barthoid فقرات منه فى *Turkestan etc* ج ١ ، ص ١٢٣ وما بعدها) أخبارا مفصلة عن چغتاى وخلفائه الأقربين ، أما الأخبار التى أوردها شرف الدين يزدى عن بيت چغتاى فى مقدمة كتابه ظفرنامه فتستند إلى خطأ تاريخى كما بين d' Ohsson (*Histoire des Mongols* ج ٢ ، ص ١٠٨ وما بعدها) هذا الى ما بها من تسلسل تاريخى غير مضبوط . والقول مفصل فى تأريخ وصاف عما حدث بعد وفاة قيدو بما فى ذلك القتال بين دوا وچپر (الطبعة الهندية ، ص ٤٤٩ وما بعدها ، ٥١٥) . ويرجع فى شأن البعوث الكاثوليكية إلى Moshemii : *Historia Tartarorum Ecclesiastica* هلمستاد ١٧٤١ ، وخاصة الملحق رقم ٧٨ ، ٨٠ ، ٨٤ ، ٩٢ . وهناك معلومات قيمة عن أحوال آسية الوسطى فى ذلك القسم من كتاب « مسالك الأبصار » لابن فضل الله العمرى الذى نشره كاترمير Quatremère فى *Notices et Extraits* ج ١٣ ، وطبعت أخبار رحلة كلافيجو Clavijo

بالإسبانية والروسية *Sbornik otdielieniya russkago jazika i slovesnosti Imp. Academii Nauk* ج ٢٨ ، سانت بطرسبرج سنة ١٨٨١ ووردت بها أخبار چغتای فی ص ٢٢٠ وما بعدها . وأحسن كتاب عن بيت چغتای فی التركستان الصينية هو « تأريخ رشيدی » (ترجمة Denison Ross لندن سنة ١٨٩٥) وكذلك المصادر التی ناقشها بارتولد Barthold فی *Zapiski vost. otd. arch. obshc.*, ج ١٥ ؛ ص ٢٢٦ وما بعدها ثم ناقشها من بعده هارتمان M. Hartmann فی *Der Islamische Orient*, ج ١ ، ص ٢٩٠ وما بعدها ، وانظر أيضاً W. Barthold : *Ocerk Istorii Semiriecya* (*Pamiatnaya knizka Semiriecenskai oblasi* ج ٢ ، ص ٧٤ وما بعدها) S. Lane-Poole : *The Mohammadan Dynasties* لندن سنة ١٨٩٤ ، ص ٢٤١ — ٢٤٣ E. E. Oliver : *The Coinage of the Chaghatai Mongols* فی *journal of the Asiatic Society of Bengal* سنة ١٨٩١ .

[بارتلد W. Barthold]

« جُغرافيا » : قصدنا من كتابة هذه المادة إلى دراسة كتب الجغرافيا عند المسلمين ، فهی لذلك محاولة لسد الثغرة التی قال بارتلد W. Barthold فی المقدمة التی كتبها للطبعة المنقولة طبق الأصل من كتاب « حدود العالم » (ليننغراد ، سنة ١٩٣٠ ، ص ٧) إنها نقص خطير فی دائرة المعارف هذه .

وكلمة جُغرافيا (وينطق بها أحياناً بفتح الجيم) لم تستعمل للدلالة على علم الجغرافيا إلا متأخراً . وجرى قدماء الجغرافيين على استعمال هذا اللفظ علماً على كتاب بطلميوس المعروف فی الجغرافيا (الفهرست ، ص ٢٦٨) وعلى كتاب مارينوس الصورى (المسعودی : التنبيه والاشراف ، ص ٣٣ ، وقد فسرت كلمة جغرافيا فی هذا الموضع بأنها « قطع الأرض ») . واستعملت لأول مرة بمعنى « علم الجغرافيا » فی رسائل إخوان الصفا ، (طبعة القاهرة سنة ١٣٤٧ ، ص ١١١) ولكنها فسرت أيضاً فی هذا الموضع بأنها « صورة الأرض » ، وظل هذا المعنى شائعاً فی العصور الوسطى . ولم يصبح لهذه الكلمة المعنى الذی نعرفه اليوم من علم الجغرافيا إلا فی أزمنة حديثة بعض الشیء (انظر الفصل المعقود على علم الجغرافيا فی كتاب كشف الظنون لحاجی خليفة ، القسطنطينية سنة ١٣١١ ، ج ١ ، ص ٣٩٤) .

ويمكن القول بأن مصنفات المسلمين لم تنشأ فرعاً متميزاً بنفسه عن فروع التأليف الأخرى إلا بعد عام ٨٠٠ للميلاد ، فقد ألفت لأول مرة فی القرن التاسع طائفة من الرسائل تتناول المسائل الجغرافية بصفة خاصة . وقد اختلف كتاب ذلك العهد اختلافاً كبيراً فی تناولهم هذه المسائل ثم تطورت شيئاً فشيئاً فأصبحت تكتب بأسلوب مقرر على تفاوت فی ذلك ، وكان هذا الأسلوب أهم سمات الجغرافيا

« الجنيد أبو القاسم » بن محمد بن الجنيد الخزّاز القواريرى : زاهد بغدادى مشهور انحدر من أسرة من نهاوند ، وهو ابن أخت السرى السقطى . تفقه على أبى ثور تلميذ الشافعى ، وحج إلى مكة ثلاثين حجة على الوجدة ، وتوفى فى بغداد عام ٢٩٧هـ (٩١٠م) ودفن بالشونيزية عند خاله . ولقد أبدى أحدهم عجبه من أنه يأخذ فى يده سبحة على الرغم من شرفه فأجاب « طريق وصلت به إلى ربى لا أفارقه » . فالسبحة فى نظره طريق إلى حالة الوجد . وقد عرف بسيد الطائفة « وطاؤوس العلماء » ، وسلم بأن الأنبياء أفضل من الأولياء ، وقابل بين الحضور الذى أنبأنا به الأنبياء والمشاهدة التى يقول بها الأولياء . وكان يفضل الصحو على حالة السكر عند المتصوفة . أما فى الكلام فهو يسلم بأن معرفة الله انما تكون عن طريق النظر العقل ويعرف مريدوه وأتباعه باسم الجنيدية .

المصـــادر :

(١) جامى ، نفحات الأنس (de Sacy : Notices et Extraits ج ١٢) (٢) بن خلكان ، رقم ١٤٣ (Biographical dictionary ج ١ ، ص ٣٣٨) (٣) فريد الدين العطار : تذكرة الأولياء ، ج ٢ ، ص ٥ وما بعدها (٤) Das Arabishen. Reich ، ص ٢٨٦ وما بعدها [زترشتين K. V. Zetterstéen]

Mémorial des Saints: Pavet de Courteille ص ٢٠٠ (٥) الهجويرى : كشف المحجوب ، ترجمة نيكلسون ، ص ١٢٨ ، ١٨٥ ، ١٨٨ (٦) الشعرانى : لواقح الأنوار ، ج ١ ، ص ٩٨ (٧) Schreiner فى Zeitschr d. Deutsch. Morgenl. Ges ج ٥٢ ، سنة ١٨٩٨ ، ص ٥١٥

[هيوار Cl. Huart]

« چو » ، نهر بالتركستان الروسية ينبع من جبال « تيرسكى آلاتاو » ويعرف باسم قوچقار فى الجزء الأعلى من مجراه ، وهو يقترب من بحيرة إيسك كول حتى يصبح على بعد أربعة أميال من الطرف الغربى منها ، وهناك يخرج منه رافد هو كوتيمالد Kutemaldi يصب فى هذه البحيرة . ويجرى النهر نفسه فى وادى بوغام الضيق ، وتصب فيه من الضفة اليمنى مياه كبن Kebin الكبير والصغير كما يصب فيه من الضفة اليسرى آق صو وكور كتى وروافدهما . ثم يصب هذا النهر فى بحيرة سومل كول الصغيرة بعد أن يجرى نحو ستمائة وخمسين ميلا بعيدا عن مجرى نهر سيحون بما يقرب من ثمانين ميلا . ونهر چو الحد الذى يفصل من الشمال بين منطقة سيحون وبين ناحيتى سيمبالاتنسك Semipalatinsk وآقمولنسك Akmolinsk المجاورتين لها ، كما يفصل جزء منه من جهة الشرق بين منطقة سيحون وبين سمريچية .

ويجرى نهر چو من منبع كوركتى حتى سومل گول فى تيه مجدب لم يكن له شأن اقتصادى قط . ويتردد اليوم على ضفاف هذا النهر فى تلك البقعة قليل من الرحل فى الشتاء فقط . أما المراعى التى على المجرى الأعلى لهذا النهر فعلى جانب عظيم من الأهمية للرحل . وتساعد الأحوال الجغرافية أسفل وادى بوغام الضيق على تقدم الزراعة ، ولهذا قامت هناك محلات دائمة منذ عهد موغل فى القدم . ولا تستمد معظم مياه الرى من النهر الأصيل ، إنما تستمد كما هى الحال فى وادى سيحون وجيحون من روافده .

وكانت هناك قرى ، بل ومدينة كانت مركزا للتجارة فى الجاهليـة أى فى القرن السابع الميلادى . ونحن نعلم من يوميات هوان ـ چونگ أن ثقافة هذا الإقليم قد ازدهرت فى ظل حضارة ماوراء النهر . ويرى هوان چونگ أن البلاد من چو حتى وادى جيحون متأثرة بهذه الحضارة نفسها . وكان فى أيامه طريقان كبيران للتجارة يربطان الصين بآسية الغربية مخترقين وادى نهر چو أحدهما عن طريق وادى إيلى وممر كستك والثانى يخترق التركستان الصينيـة إلى آق صو ثم يعبر ممر بدل Bedel على طول الشاطىء الجنوبى لبحيرة ايسك كول . وقد بقيت حتى اليوم فى وادى نهر چو بعض الأسماء الجغرافية التى ترجع إلى عهد الجاهلية مثل قرية مركه ونهر أشپره .

وورد ذكر عدة مدن فيما جاور هذه المنطقة فى أقدم كتب البلدان العربية مثل كتاب ابن خرداذبه (طبة ده غوى ، ص ٢٩) وقدامة (ص٢٠٦) مما فيها مدينة نواكث التى ذكرها الطبرى أيضا (ج ٢ ، ص ١٥٩٣) . ولم تؤثر فتوحات العرب إلا فى أقصى الغرب من وادى نهر چو ، وكان هذا التأثير موقوتا (فتح كولان ـ ترق الحديثة ـ عام ١٩٤ هـ = ٨١٠م وقد ذكر ذلك ابن الاثير طبعة تورنبرج ج ٦ ، ص ١٦٤) ويظهر أن الإسلام لم يتغلغل فى تلك الجهة إلا فى عهد السامانيين . ثم أن نهر چو ذاته (يعرف فى المصادر الصينية باسم سوى ـ يى أو سوى شى) لم يذكر فى المصادر الإسلامية قبل عهد المغل ، غير أنه من الواضح أن هناك صلة بين اسم مدينة سوياب (سوى + الكلمة الفارسية آب ومعناها ماء أو نهر) واسم هذا النهر . ويظهر أن آسم جيل فى وادى بوغام الذى ذكره الكرديزى فى (Barthold: *otchet opoiezdkie V Sredniuiu Aziw* ، ص٨٩) قد بقى حتى اليوم فى الاسم جيل أرق ، وهو الاسم الذى يطلق على مدخل الوادى الضيق . ويقول الكرديزى إن جيل معناها ضيق (ولعل ذلك فى احدى اللغات المحلية) . كما ورد اسم بوغام لأول مرة فى كتاب « ظفرنامه » لشرف الدين يزدى (الطبعة الهندية ، ج ١ ، ص ٢٧٤) كما ورد فيه لأول مرة اسم قوچقار (الموضع السابق) . وقد ظلت مدينة بلاساغون فى وادى چو حتى الفتح المغلى مقر أغلب حكام التركستان من

الرحل من أسرة أيلك خان المسلمة أو من
وع منها كما ظلت على هذا الحال بعد القرن
السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) مقرا
لعزاة التركستان الوثنيين من عشيرة القره
خطاى . وقد مر بهذا الاقليم جميع الفاتحين
تقريبا الذين أغاروا على القسم الغربى من آسية
الوسطى وكانوا من أصل أسيوى شرقى . ولعل
الثورة على القره خطاى التى شبت عام
٦٠٧ هـ (١٢١٠ م) وتدمير مدينة بلاساغون
كان له أثر بليغ فى المحلات الأخرى ، وإن
كان ذلك إلى أجل . وقد خضعت البلاد للمغل
عام ١٢١٨ دون مقاومة . وعبر الحاج الصينى
چنج چين نهر چو بعد ذلك بسنوات ثلاث
على جسر خشبى . وكانت تقوم فى ذلك الوقت
مدينة إسلامية صغيرة إلى الجنوب من ممر
كستك مباشرة وعدد من القرى بين نهرى چو
وتلس . وكان الأهالى لا يمارسون إلا زراعة
الكروم وتربية دودة القز إلى جانب اشتغالهم
بالزراعة . وشاهد الرحالة الصينى چنج تى
مرة أخرى عام ١٢٥٩ زحمة من السكان فيها ،
ولكنه وجد أيضاً جملة محلات خربة ، وهذا
يدل فيما يظهر على أن الاضمحلال كان قد
دب فى تلك الجهة . ويقول رشيد الدين إن
بلاد چوى كانت فى عهده لا تزال عامرة
بالقرى ، وكانت تحت حكم الأميرة قوظولون
ابنة الخان قايدو الذى توفى فى بداية عام ٧٠١ هـ
الموافق خريف عام ١٣٠١ . (لا توجد الفقرة
التى أوردها بارتلد فى *otchet et c.* ص ٣٨ ،
تعليق ٢ فى معظم المخطوطات ، وكذلك لا توجد
فى طبعة Blochet)

ويرجع تاريخ المقابر النصرانية التى
كُشف عنها عند پيشپك وتُقمق إلى ذلك
العهد نفسه (القرنين السابع - الثامن الهجرى =
الثالث عشر - الرابع عشر الميلادى) كما تشير إلى
ذلك شواهد القبور .

ولإقليم چو بعض الأهمية فى تاريخ
النسطورية المسيحية ، يتضح ذلك من لقب كبير
أساقفة كاشغر فى لوحة أمرى *Tabula Amri*
وهو : *Metropolita Chasemgarae et*
Nauchetae . والواضح أنه هو نواكث
الذى سبق ذكره . والكتابات التى على
القبور بعضها بالسريانية - والبعض الآخر
بالتركية (بالأبجدية السريانية) . وقد عثر أيضا
فى هذه الجهات على شاهد أرمنى يرجع إلى
ذلك العهد نفسه . ولا نعرف متى وكيف قضى
الإسلام على النصرانية قضاء مبرما . ويتحدث
بسكاليس Baschalis الراهب الكاثوليكى
عن اضطهادات دينية حدثت عام ١٢٣٨ . وقد
هلك فى العام التالى كثير من المبشرين
الكاثوليك فى هذه الاضطهادات . وجاء فى
الكتابات أن طاعونا حل بهذه البلاد فى تلك
السنين . ويظن أن هذا الطاعون هو الموت
الأسود الذى ظهر بعد ذلك بتسع سنوات فى
أوربا الغربية ، ولكن بسكاليس لم يذكر شيئا
عن هذا الطاعون - ولابد أنه مر بهذا الإقليم
وهو فى طريقه من الجرجانية (كُرگانج

أو أرگنج) إلى ألمالق — كما لم يذكره المؤرخون الآخرون . ولاشك أن الحروب المستمرة والصراع الذى نشب حول الملك فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) قضى على الرخاء والحضـــارة الإسلامية والنصرانية فى تلك البلاد (انظر مادة چغتاى خان) . ولم تذكر فى فتوحات تيمور مدينة أو قرية على نهر چو . ولم يكن فى تلك الجهات فى عهد محمد حيدر صاحب كتاب « تأريخ رشيدى » (حوالى منتصف القرن العاشر الهجرى = السادس عشر الميلادى) سوى أطلال المدن القديمة وحتى أسماؤها قد عفا عليها النسيان . وذكر محمد حيدر كتابة على أحد القبور تاريخها عام ٧١١ هـ (١٣١١ — ١٣١٢ م) وطائفة من البنى بما فيها مأذنة ومدرسة وبعض العمائر ذات القباب وكلها كانت أطلالا . وكان يطلق على هذه الأطلال اسم منارة نسبة لأعلى بناء فيها . ولم يبق من أبنية العصور الوسطى فى تلك البقعة إلى اليوم سوى برج مرتفع يسمى « بُرَنة » غير بعيد من تقمق . وقد وُصف هذا البرج وصور مرارا (انظر مثلا Barthold: *otchet etc* لوحة رقم ٦) والظاهر أن هذا البرج هو عين مأذنة المسجد الجامع ، بل إن اسمه كما يظن بتروڤسكى Petrowski قد يكون مشتقا من الكلمة العربية منارة (*Zapiski vost. otd. Imp. Russk. arkh. obshc.* ، ج٨ ، ص٣٥٢)

واحتل أقوام رحل مختلفون وادى نهر چو على التوالى حتى القرن التاسع عشر . وكانت هذه البلاد تحت حكم القلموق الوثنيين مدة من الزمن ، بل إن خلفاءهم القره قرغيز الترك لم يتأثروا قبل الفتح الروسى بالإسلام إلا فى الظاهر . وقام مستعمرون من بلاد ما وراء النهر بأعادة إنشاء محلات عدة فى مجرى نهر چو وروافده بعد أن أفلح خانات خوقند فى إخضاع جميع الشعوب الرحل على المجرى الأدنى لنهر سيحون حتى وادى نهر إيلى . وقد حصنت محلتان من هذه المحلات هما پيشپك (وتعرف باسم پيشكك فى كتب مؤرخى خوقند) وتقمق . واستولى الروس على هذين المعقلين ودمروهما عام ١٨٦٠ وذلك عندما توغلوا فى وادى نهر چو فوق ممر كستك (ويعرف باسم أشتك عند مؤرخى خوقند) . وكانت پيشپك فى العهد الروسى قصبة هذه الناحية . ويمتد اليوم ناحية الشمال طريق للبريد يبدأ من پيشپك ثم يعبر نهر چو وممر كردای المعبـــد إلى وادى إيلى . ولا يستعمل اليوم الطريق القديم المار بتقمق وممر كستك ، ولهذا فإن الإقليم حول تقمق الحديثة لم تعد له تلك الأهمية التى كانت له فى العصور الوسطى . وقد استقر فى تلك الجهة فى العقود القليلة الأخيرة عدد كبير من مهاجرى الروس بأوربا . ووزعت أيضا بعض الأراضى فى وادى نهر چو على الدونگان الذين فروا من التركستان الصينية ؟

المصـــادر :

(١) *Histoire de la vie de Hiouen-Thsang* ترجمة Stan Julien باريس ١٨٥٣

(٢) *Mémoires sur les contrées occidentales* ترجمة Stan. Julien باريس ١٨٥٧-١٨٥٨

(٣) *Documents sur les Tou-kiue (Turcs) occidentaux* : E. Chavannes

(٤) W. Barthold : *otcet o poiezdkie v Srednjuju aziju 1893—1894. gg.* سانت بطرسبرج ١٨٩٧

(٥) المؤلف نفسه : *ocerk istorii Semiriecia* (*Pamjatnaje knizka Semiriecenskoj oblasti* ج ٢) :

(٦) E. Bretschneider : *Mediaeval Researches from Eastern Asiatic Sources* ج ١ ، ٢٢ ، لندن ١٨٨٨ ، وخاصة ، ج ١ ، ص ٧١ وما بعدها ، ١٢٩ وما بعدها

(٧) D. Chwolson : *Syrisch-nestorianische Grabinschriften aus Semirjetschie* سانت بطرسبرج ١٨٩٠ ، المجموعة الجديدة ، سانت بطرسبرج ١٨٩٧

(٨) N. Marr : *Nadgrolnij kamen iz Semirjecia s armjanskosirijskoi nadpis ju 1323 goda.* (*Zapiski vost. otd. arkh obshc.*, ج ٨ ، ص ٣٤٤ وما بعدها)

(٩) P. K. Kokowcow : *K siro-tureckoj epigrafikie Semirjecia* (*Izv. Imp. Akadamii Nauk* ، ١٩٠٩ ، ص ٧٧٣ وما بعدها)

(١٠) Moshemii : *Historia Tartarorum ecclesiastica* وخاصة الذيل ، ص ٩٢

(١١) تأريخ رشيدى لميرزا محمد حيدر ، دوغلات ، النسخة الانجليزية ، طبعة N. Elis والترجمة بقلم E. D. Ross لندن ١٨٩٦ وخاصة ص ٣٦٤ وما بعدها ، حيث ذكر القراءة الخاطئة جود مكان چو ولكنه افترض صحة القراءة الأخيرة فى إحدى التعليقات (١٢) Barthold فى *Zapiski vost. otd. arkh. obshc.*, ج ١١ ، ص ١٠٧ وما بعدها

[W. Barthold بارتلد]

« الجواد الأصفهانى » : أبو جعفر محمد بن على ، ويلقب تشريفا له بجمال الدين من وزراء بنى زنكى ، درس على أبيه أحسن درس ثم شغل لتوّه منصباً فى ديوان العرض الخاص بالسلطان محمود السلجوقى . ثم غدا من أخلص أصدقاء زنكى الموثوق بهم . وقد ولاه على نصيبين والرقة وجعل له الإشراف على دولته بأسرها . ولما قتل زنكى تخلص الجواد الإصفهانى بشق الأنفس من المصير الذى لاقاه مولاه ، ولكنه أفلح فى الخروج على رأس الجند حتى بلغ الموصل ، ولذلك فإن سيف الدين غازى ولد زنكى أيده فى منصبه . واشتهر جمال الدين فى تلك الفترة بكرمه ، ومن ثم أصبح يعرف فى كل مكان باسم الجواد . وقد اكتسب بصفة خاصة ثناء إخوانه فى الدين لكثرة المنشآت الخيرية النافعة التى أقامها من ماله الخاص بالمدينتين المكرمتين مكة والمدينة . وعلى الرغم من